خواطر يثيرها سائل

للأستاذ عبد المنعم خلاف

— ٣ —

سنة الله — التحرر من التاريخ — الطفولة موضع أمل — عصر العمل — شرود النساك — عالم الأجسام — فلتعش هنا — معنى العبادة — الدين ابتهاج لا كآبة — دعوة الأغنياء للدين — الحياة لعب ولهو — جناية الدولة على حياة الروح

لا يزال أكثر الناس يجهل سنة الله واتجاه إرادته فى الطبيعة على الرغم من كثرة عدد العلماء الطبيعيين ، ولا يزال كثير من الأمم يأبى أن يبنى الحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية كما بنى الله الطبيعة بقوانين لا تخطىء ولا تستثنى ولا تهمل ، مع أن الحل الوحيد الموفق السعيد لجميع المشكلات هو أن يبنى الفرد حياته وتبنى الجماعة حياتها كما بنى الله الحياة العامة على الحرص الدقيق واليقظة التامة والعلم الشامل والقوة القاهرة والتصميم النافذ والاستيعاب الكامل للجزئيات والتوزيع العادل للقوى والعناصر ؛ فبرزت فى هذا التناسق والانسجام والجمال

ومع هذا الجهل الفاضح من الناس « لسنة الله » نجدهم فى غاية الجرأة إذ يقدمون على محاكمة الله بعقولهم القصيرة المحدودة التى لم تعرفه بعد ولم تعرف اتجاه إرادته الظاهر فى الطبيعة

إن الله احتجب عنا فلن ندركه بأبصارنا إذ لا قدرة ولا طاقة لنا على ذلك . ولكنه وضع أمامنا « خريطة » الكون مفصلة واضحة لنرى فيها تخطيطه وأسلوبه فى إيجاد الحياة وتنظيمها والقيام عليها

وقد وضع الله فى الإنسان قوة أشبه بمرآة تنطبع فيها جميع صور الطبيعة ونظمها وهى « العقل » ، وكان من المحتم لو سارت التربية سيرها الطبيعى أن ينتقل سنة الله فى الطبيعة إلى تلك القوة وينطبع فيها فتحفظه وتتنبه إليه دائماً وتسير بإرشاده فى بناء الحياة الإنسانية . ولكن قوة « الاختيار » التى فى الإنسان من جهة وحبه « لاختبار » كل أفق « واستطلاع » كل شىء فى الحياة هما السبب فى عدم تقيده بما يوحى إليه أسلوب الله ، وفى خلقه لنفسه جواً صناعياً جعله يبتعد بالتدريج عن الطبيعة التى هى كتاب الله إليه وصورة من علمه تعالى واتجاه إرادته

وشىء آخر غير « الاختيار » وحب الاستطلاع والاختبار يؤثر فى إدراك الإنسان وعقله تأثيراً رديئاً ... شىء هو كل شىء ... هو التاريخ المسطور فى الصحف الموروثة وأدمغة العجائز والشيوخ الذين هم قناطر وجسور دائمة تعبر عليها وراثات من الجاهليات الأولى متحدرة فى الدماء والأعصاب والألسنة هى آثار من المحاولات الأولى المغلوطة التى حاولها الإنسان لإدراك الله وإدراك اتجاهه فى الطبيعة

إن مخاطر التاريخ السيئة هى التى تعوقنا عن رؤية الحق الصريح إنها جعلتنا أناسيّ صناعيين لا طبيعيين ... فلا يزال فى التاريخ كثير من الأمراض والظلمات التى كنا فيها قبل أن ننسب عن الطوق ونتدرك الرشد ، إنه من أكبر أسلحة الشر لمقاومة تقدم الإنسانية ... إنه يربينا بما كان يربى عليه الأولون من العواطف والأفكار المغلوطة ، ومن العجيب أن الاحتفاظ بخرافات التاريخ وجد له شرعة عصرية تحلله بحجة الإبقاء على « التقاليد » حتى الدين العقلى الطبيعى وهو الإسلام لم يستطع أن يمحو مصائب التاريخ ومواريثه السيئة من الأمم التى تدين به فدخل كثير من الناس فيه من غير أن يغتسلوا غسلاً تاماً من مواريث الوثنيات والأباطيل واكتفوا بتغيير عنوان حياتهم العقلية القلبية من غير أن يخلعوا ما وراء العناوين ، ولو ذهبت أتقصى بقايا الوثنيات فى ديار الإسلام وفى أفكار المسلمين لطال بى المقال ، وحسبى أن أحيل كل قارئ على علمه بما يجرى ، وإذا كان هذا فى ديار الإسلام فما بالك بما فى ديار غيره ... وقد انحدرت إلينا هذه المواريث سائرة مع أصول الدين جنباً لجنب ولم تنتبه إلى ازدواج شخصياتنا تبعاً لذلك ، وإنى أتخيل جيلاً من الأطفال ربى بأيدى حكماء تحرروا من كل باطل واسترشدوا بأسلوب الطبيعة وسلامة الفطرة ولم يأخذوا الأفكار العامة عن الحياة والدين من التاريخ والبيئة الملوثة . أتخيل ذلك فتسطع أمامى فى هذه الأرض أنوار من الجنة الموعودة فى السماء ...

ولم يستطع نبى أن يتلقى الوحى عن الله إلا بعد هذا التجرد من التاريخ ... إن النبوة فى مبتداها تجرد من كل شىء موروث

تمها إيغال فى الوصول إلى أصول الحياة ، ثم رؤية يد الله وهى تضع هذه الأصول وتحفظها ، ثم سماع الله بعد ذلك ...

والطفولة هى موضع أمل الإصلاح ... ولكن هل تترك الإنسانية المصلحين يبنون مستقبلها ؟ هذا سؤال قبله سؤال آخر : هل هى تدرك المصلحين وتعرفهم ؟ نعم تدركهم ولكنها تحسدهم ؛ لأن الغرائز السفلى وقوى الشر دائماً تسلط الحسد ليكون طليعة فى الدفاع عنها وبقاء وجودها ...

قلوب الأنبياء والحكماء كقلوب الأطفال ... لأنهم يرتدون دائماً إلى مبادئ الطبيعة وأوليات الحياة البسيطة التى لم تلتو مع ميراث النفاق الاجتماعى والإثم الصناعى . فهم دائماً ينظرون بفرحة وبهجة إلى الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكل شىء ... وكل شىء . وكأنهم فى ابتداء حياة جديدة كل يوم بل كل ساعة ... وتترق نظرتهم بترق إدراكهم حتى ينتهى بهم الأمر إلى أن ينظروا إلى الوجود نظرة خالق الوجود ! نظرة وراءها وصاية على كل شىء واهتمام به وحرص على استمرار نفاذ قوانين الحق على سنة الله وطريقته

* * *

قد كان من الواجب على الإنسان أن يقلد أسلوب الله منذ وجوده . وأسلوبه يتمثل فى العمل والصمت الدائم ... ولكن الإنسان أخذ يلهو ويعبث ويتكلم ! وفرح بالكلام وقضى فى علوم الكلام دهراً طويلاً من عمره ، حتى جاء العصر العملى الذى لا نزال فى فجره ونواكيره . وهذا العصر العملى كثير البركات على الإنسان ، إذ كشف له عن كثير من أبواب كنوز الطبيعة ومفاتيحها . وكان من أول الواجبات بعد هذا العصر أن يشرع الإنسان فى تعديل غرائزه السفلى وتهذيبها و « تطويرها » حتى لا تشغله بسفالاتها القديمة وصراخها الصبيانى

وإنى لأعجب من العلماء الطبيعيين الذين كشفوا عن كثير من الأسرار العملية فى الطبيعة ، ثم استعروا بعد ذلك خاضعين للغرائز السفلى ومواريث التاريخ الجاهلى ! كما أعجب من النساك والعباد الذين يتنسكون ويتركون الجهاد للحياة العملية والاندماج فى موجاتها !

إن الله بنّاء بنى السماء والأرض والجبال . . . وصانع صنع أجسام النبات والحيوان . . . وسقّاء يسوق السحاب الثقال ... وزراع يخرج نبات كل شىء ، ومعلم هدى كل شىء إلى طبيعته ... وفنان طرّز حواشى الوجود ، وصبغ الخدود ، وزركش الأرض بالورود ، ورقق أنفاس الرياح ، ونشر العطر الفياح ، ورقرق الأنهار ، وجلا النهار ، وزين الظلام بالمصابيح الوضاء...

« فالجمال هو توقيع الله على الأشياء » !

فكيف يأبى النساك أن يعملوا للحياة عمل الله ؟ !

إنهم لم يعرفوه ! فلو عرفوه لساروا على أسلوبه ، ولأقاموا أسواق الحياة عامرة . . . لأنه خلقهم ليعمروها لا ليتركوها غامرة صامتة صمت الخراب والقبور ...

إن حياة التأمل فى الله بدون عمل قليلة المحصول جالبة للخبال « ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا »

الأجسام ! الأجسام ! هى أداة الحياة فى الدنيا ، فيجب أن نحيا بها حياة كاملة ، ولا نعطلها فى البحث وراء العالم الخفى ... يجب أن نخرجها إخراجاً جميلاً قوياً فإنها محاريب من محاريب الطبيعة أيضاً ... بل يكاد يكون الجسم الإنسانى الجميل المكتمل أجل شىء فى الوجود ...

لعل النساك يحرمون أنفسهم هنا لينالوا ما هناك ؟ ... كلا ! ليس وجود الآخرة معناه ألا نحيا هنا حياة طيبة بقدر ما تسمح به طبيعة الحياة الدنيا . . . إن الآلام هى سبب الكفر والجرائم التى تحرم من جنة السماء فلنحاربها ولنمحها إذا استطعنا لنضمن الرضا عن الحياة والرضا عن الله

لماذا ننشد نعيم الآخرة بشقاء الدنيا ؟ ! ألا يجوز الجمع بينهما ؟ بلى ! وإلا فالحياة مأساة !

ويقينى أن صلاح الدنيا صلاح للآخرة

إن الدين لم يكلفنا بعمل أشق من الموت فى سبيل الله . وما معنى الموت فى سبيل الله ؟ إنه الموت لتكون كلمات الله هى العليا . ولن تكون كلماته كذلك إلا إذا سار الإنسان على أسلوب الله فى الطبيعة فضمن سلامة الحياة من إجرام الغرائز السفلى وظلمها ، فكأنه أشق عمل دينى فرضه الله وسيلة لإصلاح الدنيا . فصلاح الدنيا هو المطلوب الأول لأننا نحيا حياتنا هذه قبل حياتنا الأخرى

يقول النساك المنزلون للحياة : إنهم يطلبون وجه الله بالعزلة ... ولكن وجه الله الحقيقى لا يرى ... وفى الحديث : « إن الله احتجب عن الأنظار ، وإن الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه أنتم » . ذلك قول قالته أعظم نبوة رأتها الأرض ، وعليه طابع جلالها وعمقها وصدق تجربتها فى البحث عن وجه الله

ولكن صور وجه الله تظهر جلية رائعة فى الطبيعة وفى آفاق الحياة الإنسانية ، فعلينا أن نبحث فيها عن الله وأسراره . وما خلقنا بالأجسام إلا لنعرفه فى عالم الأجسام . . .

علينا أن نلبس الحياة لبساً واسعاً شاملاً وأن نحسها فى كل شىء إحساساً عميقاً . وتلك هى حقيقة عبادتنا . فالدين هو الإحساس بالحياة إحساساً دائماً يكون معه الفكر فى الله مبدع الحياة . وبهذا أجد تفسير « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » وبهذا التفسير تتبين غاية الخالق من خلق الناس متحققة واضحة جلية . أليس كذلك أيها الأخ البيروتى أوليس كذلك أيها الأخ الآخر « ح . م » ؟

فالإحساس الصادق بالحياة والعمل بمقتضى هذا الإحساس هو عبادة الله . وعلى هذا تكون كل حياة الإنسان فى الأرض عبادة . . . حتى خدمته لنفسه وشعوره بلذاته المحللة وكشفه العلمى وعمله للرزق ما دام وراء كل أولئك فكر فى الله وتنبه إلى سر إيجاده للحياة

وتبتدئ العبادة حين يحس الإنسان أنه دخل هذه الحياة مكرهاً من غير إرادة ، فصبر على ما فيها من آلام ومشقات حتى يتوفى الله نفسه من جسده ... فالمنتحر كافر لأنه لم يتحمل آلام التجربة والاختبار فى هذه الرحلة الأرضية التى لا بد أن يكون وراءها غاية عقلية عند الذى دعانا إليها وحملنا عليها . المنتحر شخص وهبه الله الحياة فردها فى وجهه . فما دمت قد شعرت أنى لست أنا الذى خلق نفسى ودفع بها إلى هذا البيت الهائل العظيم فصبرت وانتظرت وفكرت فى صاحبه دائماً فأنا عابد لله ؛ لأننى سرت طائعاً مع أبناء الحياة ، وموا كب الطبيعة التى تسير أمام عصا القهر طائعة ساجدة

والفرق بين أعظم القديسين وأعظم الكافرين هو اتجاه الفكر والنية إلى رب الحياة فى كل عمل وفى كل وقت ... فالقديس كل أعمال حياته مسبوقة باتجاهات ونيات منظور فيها إلى رب الحياة ... والكافر كل حياته غفلات يأخذ بعضها برقاب بعض فلا يفيق منها إلا عند الموت . مع أنه حين يدخل متحفاً أو بيتاً جميلاً يسرع فكره إلى السؤال عمن بناه أو نظمه ...

لقد أفسدنا المعانى الدينية بأخذها تقليداً من دون فكر وروح وإحساس بها وبتلقينها للأحداث قبل أوان تفتحها فى أرواحهم وعقولهم بمناسباتها . فحسبنا العبادة هى أداء رسوم الصلوات والزكوات والصوم وغيرها ... كلا ! إن العبادة هى الإحساس الصادق بالحياة والشعور الملازم بالله والفكر فيه ، وفى أسلوبه وتقليد أعماله فى الطبيعة من أول الوعى للحياة إلى أن تحين سكرة الموت ... وأما الصلوات وما وراءها مما يسمى عبادات ، فهى فيض النفس بتلك المشاعر والأحاسيس والأفكار فيضاً يتمثل ويتشكل ويظهر فى عالم الأجسام بعد امتلاء الروح ...

والدليل على ذلك أن هذه الأعمال تكون باطلة إذا خلت من التوجه والنية ... فكأنها مواقف « استعراض » لأجسام الذين تمثلت فيهم الحقيقة الدينية كمواقف استعراض الجنود الذين يجيشون لغاية ما ، ولن يعد الجندى بلباسه وشاراته وسماته الظاهرة إلا إذا كان عامر القلب بمعانى الوطنية والغاية التى جند من أجلها .

* * *

شىء واحد ينبغى للانسان أن يحرص عليه ، حتى يحقق الغاية من خلقه : هو أن يحيى رب هذه الحياة بتحية بسيطة قبل أى عمل أو متاع ، ومع كل ألم ...

فإذا استطاعت التربية فى بيوتنا ومدارسنا أن تجعل هذه الخاطرة الصغيرة عادة ملازمة للانسان ، فقد قام الدين وأقيم أساسه فى النفس ، ثم تأتى سائر رسومه وأشكاله بعد ذلك فيضاً نفسياً وفعلاً اختيارياً

وإن إدراكنا لله فى القرن العشرين يجب أن يكون أوسع منه عند جماهير الناس فى القرون السالفة . وهذا منوط بالتربية ، والنشأة الطبيعية تحت التأثير المباشر للطبيعة أقل ضرراً وإفساداً لنفس الطفل من التربية المغلوطة التى فيها مواريث ومقاييس فاسدة

والدين يجب أن يعلم على أنه بهجة وفرح بالحياة التى أتاحت لنا أن نعرف الله فى هذه الرحلة السعيدة التى دعانا إليها على الزورق الأرضى

ولشد ما يغيظ ويؤلم أن ترى حياة التدين عند أكثر الناس ملازمة للكآبة والضعف والحزن والفقر ! ... وسوء الطريقة فى دعوة الأغنياء والأقوياء للدين ، هى التى حرمتهم منه وحرمته منهم ، حتى صار معلوماً عند الناس أن عبادة الله لا تكون من قوة ولا غنى ، وإنما تكون من الفقر والضعف الذى لا يملك فى الأرض صرفاً ولا نصراً . وعدم التفريق بين ما لا بد منه فى الدين لأنه ضرورى وبين ما منه بد لأنه كما لى هو مما جنى على حياة التدين بعدم انتشارها بين الأغنياء والأقوياء

ثم إن مفاجأة الأغنياء والأقوياء بألحان الكآبة والحزن والموت والقبر وجهنم ، وغمرهم بكثرة التكليفات التى لا يقوم بها إلا الورعون ، هى التى جعلت نفوسهم تضيق بهذه القيود القاسية التى تحبسهم عن حياة المتاع الحلال والحرام الذى لم يبين لهم سبب معقول لتحريمه إلا الخوف من عذاب جهنم . والدين إذا لم يبن على الفكر والتعليل أوشك أن ينهار بناؤه ، حتى فى نفوس الدعاة إليه . وخصوصاً إذا كان ديناً يهيمن على شئون الدنيا ويقيم لها حدوداً كالإسلام

أمن الحق أن يوجه فكر الإنسان دائماً إلى الموت على أنه هو المطلوب الأول من الحياة ؟

وهل من الحق أن نجعل المثل الأعلى للحياة الدينية هو التفرغ لما يسمى عند الناس بالعبادات ؟

قال الغزالى : « واعلم أن العلم غذاء والدين دواء ، فمن جعل الدواء غذاءه مرض ... »

وقول الغزالى هنا قول فصل ، لأنه قول خبير فى هذا المقام ومن قواعد الدعوة الإسلامية الأولى أن العامة والجماهير ينبغى ألا يحملوا على الورع والزهد والتزمت ...

والقرآن يعترف بسلطان الحياة على النفوس ويقول : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » . ويقول : « إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » . ويكرر هذا المعنى فى غير موضع . فلماذا نريد نحن أن نفرض للحياة صورة عقلية كلها جد مؤلم مستمر وصرامة . ونريد أن نحمل الناس عليها ، مع أن العقل والشرع والتجربة الأزلية تقرر أن هذا مستحيل ؟ وهل كل ما فى الحياة إلا تكوين وتخريب كلعب الأطفال ؟ وهل الرجال والنساء إلا أطفال كبار يلعبون فى الحياة لعبها المعهود بالجمع والطرح ؟

إننا نصنع من طين الأرض وموادها الميتة آلات تسمى وتطير وترى وتسمع ... ثم نخربها بالاستعمال والامتهان ونكون غيرها وهكذا . .

إننا نشقى فى جمع المال والاقتناء والاستكثار ثم نترك كل هذا لغيرنا يعبث فيه ويبدده . أليس هذا عبثاً أو شيئاً أشبه بالعبث فى نتائجه ؟ ولكننا محمولون على هذا من الطبيعة ولن نملك لأنفسنا غيره ، ورجال الدين مثلنا مع أننا نعلم ما تقول الحياة وما قال القرآن عن الدنيا من أنها « متاع الغرور »

فلماذا لا ننظر إلى الحياة على حقيقتها هذه ثم لا نتشاءم من كثرة ظواهر الشرور فيها ، حتى لا يحملنا التشاؤم على اليأس وترك الكفاح ، ثم نحاول أن نتلطف فى الدخول على الطبيعة البشرية اللاهية اللاعبة فنقنعها بواجبات الجد والعمل فى الأوقات القليلة التى لم يطلب الله فى غيرها من الإنسان أن يؤدى عملاً ؟

وكما تلطفت التربية فى الدخول على طبيعة الأطفال ، فعلمتهم مبادئ العلوم ، ودربتهم على مبادئ الأخلاق عن طريق اللعب من غير شعور ، ينبغى أن تفعل مثل ذلك مع الأطفال الكبار : الرجال والنساء ... وتلك هى رسالة رجال الروح ...

ولكن الدولة قد جنت على الحياة الروحية أكبر جناية حين أباحت الانتساب إلى الدين لمن لا تؤهله عقليته ، ولا ثقافته ، ولا تكوينه الجسمي أن يكون قائداً من قواد الروح ، وعنواناً جذاباً للدين ... وإلى الآن لم يتيقظ كبار رجال الروح إلى ضرورة وضع حد لهذه الحالة مع أنهم يدرسون فى علوم العقائد أن الله لم يرسل رسولاً إلا بعد الانتقاء والاصطفاء ، وأنه لا بد أن يتحلى بالصدق والأمانة والتبليغ والفطانة والخلو من العيوب المنفرة ...

ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة فقد كان ذكياً قوياً جميلاً لطيف الروح دمث الأخلاق رحب النفس نظيف الجسم والثوب يمشط شعره ويعطر ثيابه ويخضب لحيته

ولقد عاش رسول الله بجسده عيشة رحبة كما عاش بروحه فسابق وصارع وركب وحارب وليس الدروع واقتنى السيوف